المحاضرة الثامنة: الغموض في الشعر

1-مفهوم الغموض لغة واصطلاحا :

يحمل الغموض معنى الإبهام والإخفاء، وهو ضد الوضوح والغمض والغامض المطمئن، المنخفض من الأرض وقد غمض المكان ؛ خفي وكل ما لم يتجه إليك من الأمور فقد غمض عليك والغامض من الكلام خلاف الواضح، وأغمض النظر إذا أحسن النظر أو جاء برأي جيد وأغمض في الرأي أصاب[1].

فقد حظي الغموض بمفاهيم عدة، لدرجة أنه التبس بمصطلحات أخرى، منها (الإبهام)؛ نجد الناقد " أمبسون" قد حاول الفصل بينهما، حيث عدّ الإبهام صفة نحوية في الأساس، لأنه مرتبط بتركيب الجمل ،في حين الغموض صيغة متعلقة بالخيال، تسبق مرحلة التعبير والصياغة اللغوية، لأن كل ما يصوغه الشاعر يكون عبارة عن أفكار خيالية غير واضحة المعالم، ترتكز في ذهن الشاعر [2]؛ أي أن الغموض يلتصق بالأفكار في حين الإبهام لصيق باللغة على حسب أمبسون.

فالغموض عند "أمبسون" : « يمكن أن يعني عدم القطع فيما تعنيه أو تراه لأن تعني أشياء كثيرة أو احتمال أن تعني هذا أو ذاك أو كليهما معا، وحقيقة أن جملة لها عدة معانٍ»[3].

فهو لا يعني الإبهام، والشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق، والشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كونا مغلقا.

وطبيعة الخطاب اللغوي أو أي نظام دال، يمتلك عن متلقيه، أكثر من معنى ويستحيل عليه تأويله بدقة. إننا حين نعالج الغموض لا ننظر إليه مجرد «صفة سلبية وإنما هو صفة إيجابية. بل أكثر من ذلك هو مجموعة من الصفات الإيجابية»[4].

2-الغموض في الدراسات النقدية العربية القديمة:

كان لتزاوج الثقافات الأثر الكبير في تغيير طريقة التعبير الشعري، وهذا ما نجده عند أبي تمام الذي أفاد من ثقافته الواسعة فانعكس ذلك على شعره، وغير في طريقة تعبيره في أسس مذهبا شعريا يقوم على الغموض، وهذا ما أتاح للنقاد العرب القدامى فرصة لتناول هذه القضية وأولهم الآمدي الذي ألف كتابا سماه الموازنة بين الطائيين، وذهب إلى أن «الفرق ما

---

(1) ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة (غ م ض) ، 1991، ص 200.

(2) ينظر، وليم أديسون، سبعة أنماط من الغموض، تر، صبري محمد حسن عبد النبي، المجلس الأعلى للثقافة ، ط9، 2000، ص 424، 427

(3) ينظر، المرجع نفسه، ص171.

(4) محمد محمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1986،ص166.

بين البحتري وأبي تمام يكمن في اختلاف مذهبهما، فالبحتري يتميز أسلوبه بصحة العبارة وقرب المأتى، وانكشاف المعنى، أما أبو تمام فقد قام مذهبه على غموض المعنى ودقته، وكثرة ما يورد مما يحتاج إليه إلى الاستنباط والشرح والاستخراج»[5].

و نجد حازم القرطاجني (684ه)، قد عالج هذه القضية، وبين أوجه الإبهام والغموض ويعطي حيلا لإزالته، ويرى أن «غموض المعاني وإشكالها قد يكون بسبب عباراتها أو الألفاظ المعبر عنها، وقد يكون لأسباب ترجع إلى المعنى ذاته»[6].

فقد لاقت قضية الغموض اهتماما كبيرا في ظل الدراسات النقدية القديمة التي احتوت هذه القضية؛ وخير مثال لهذا "حازم القرطاجني" حينما تكلم عن المعاني ودراستها من ناحية الوضوح والغموض؛ يقول « إن المعاني وإن كانت أكثر مقاصد الكلام مواطن القول تقتضي الإعراب عنها والتصريح عن مفهومها، فقد يقصد في كثير من المواضع إغماضها وإغلاق أبواب الكلام دونها، و .. قد نقصد تأدية المعنى في عبارتين إحداهما واضحة الدلالة والأخرى غير واضحة الدلالة لضروب من المقاصد»[7]؛ أي أن حازم أراد التمييز بين وضوح المعاني وإغماضها؛ أي معان يراد إغماضها ومعان يراد إيضاحها، ومعان يراد إيضاحها وإغماضها معا[8]، وعليه فإن الغموض قد يكون إما في المعاني أو في الألفاظ أو يكون فيهما معا.

والمتتبع للدراسات النقدية القديمة يرى أن اكتشاف البعد الفني لظاهرة الغموض مرهون بتتبع الوعي الجمالي العربي ، بحيث اقتصر الجانب الحسي الذي تدركه الحواس بمساعدة العقل ، الذي يقابله الجمال المعنوي الميتافيزيقي الذي ظل محصورا ، إن لم يكن غائبا [9] .

3-الغموض في الدراسات النقدية العربية الحديثة والمعاصرة:

إذا كانت ظاهرة الغموض في الشعر من القضايا التي أثير حولها كلام كثير في القديم ، حينما تناولها النقاد العرب القدامى وحاولوا النفاذ إلى جوهرها من خلال رؤية نقدية، كالآمدي، والقاضي الجرجاني وأبو هلال العسكري، وحازم القرطاجني ، فقد تواصل البحث في هاته القضية حتى العصر الحديث، وخاصة مع الرمزيين الذين تجنبوا الوضوح كي لا

---

(5) عبد العليم محمد اسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص11.

(6) المرجع نفسه، ص77، 78.

(7) عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، مدخل إلى نظرية الأدب العربي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 9، 1433ه/ 2021م، ص324.

(8) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص172.

(9) ينظر،عز الدين اسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط2، 1968، ص 412،413.

يقعوا في الملل، أما الشعراء العرب فقد أدركوا أن الغموض نتيجة طبيعية للتعامل مع اللغة، وهذا يظهر جليا عند الشعراء العرب الحداثيين، فقد اتسمت أشعارهم بالغموض نتيجة فهمهم لطبيعة الشعر وغايته.

وعليه ، فإن الغموض من أهم سمات القصيدة المعاصرة، ومن أبرز ظواهرها الفنية، وهذا ما أكسبها جدة وحداثة في الطرح لأن «العمل الفني الجيد هو الذي لا يعطي نفسه لمتلقيه إلا بعد طول مماطلة»[10].

هذا وإن ظلت الجمالية الشكلية للقصيدة سمة وخاصية طبعت الشعر القديم، فإنه ليس من الغريب ألا تختلف القصيدة المعاصرة عن القديمة من حيث اللغة، نظرا لتطور الحياة واختلاف التجارب، وعليه أدرك الشعراء المعاصرون أن الكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة يستتبع بالضرورة الكشف عن لغة جديدة[11] ذات جمالية حديثة تتأسس على مبدأ الرفض والقطيعة مع كل ما هو غريب عنها، والانفصال عن الواقع والإبحار في غياهب الخيال ومعالجة المواضيع الميتافيزيقية، فيبدأ السعي نحو التغيير والتعدد والغموض[12].

وإذا كان الشعر الغامض هو ذاك الشعر القائم على الإخفاء والستر والعمق، والاتساع، وكلها مرتكزات تبثها في نصه، ليخلق منها، كما يصرح " أدونيس" «عملية الإغراء والتشويق وإثارة الرغبة لدى القارئ، وهو يخلق له عدة عراقيل، ويعقد عملية تلقي هذا النص الشعري الموغل في الغموض، حيث تعد قراءة النص مرحلة هامة في عملية توازي أهمية الكتابة في حد ذاتها بل هي كتابة نابضة للنص، ومن هذا المنطلق أصبح القارئ وواقعه العربي مطالبا بالاقتراب من هذا الشعر الحداثي الغامض عن طريق التحصيل الثقافي الواسع، وتوسيع مجالات الاطلاع، وزيادة الجهد الفكري ليكسب طاقة إبداعية تمكنه من استقبال مثل هذه الإبداعات »[13].

هذا ويرى " أدونيس" أن الغموض في الشعر ، نقيض الوضوح حينما قال: «الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق، والشعر كذلك، نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا»[14]، وهذا يوضح ميول أدونيس إلى الغموض في الشعر بعده سمة جمالية تجعل من النص الشعري مثيرا يستجيب له القارئ بدوام البحث والكشف عن هذه الجماليات .

---

[10] محمود درابسة ، التلقي والإبداع، قراءات في النقد العربي القديم، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن، دط، 2003، ص51.

[11] ينظر، عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط3، 1981، ص174.

[12] إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص76.

[13] أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط2، 1971، ص120.

[14] ينظر، مسعد بن عبد العطوي، الغموض في الشعر العربي، مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر، تبوك، 1416ه ،ص170.

أما عن " عز الدين إسماعيل" فهو الآخر اهتم بالتمييز بين المصطلحين، يقول: «ينبغي أن نميز بين الغموض والإبهام، وأنا استخدم هذين اللفظين في مقابل اللفظين الانجليزيين ombigruity و obscurity ، فنحن نستخدم في الأغلب لفظة الغموض ونادرا ما تستخدم لفظة الإبهام، مع أن الشيء المبهم المستغلق ليس هو دائما بالضرورة الشيء الغامض، وقد سبق أن حلل (أمبسون) صفة الإبهام وعده صفة خيالية، تنشأ قبل مرحلة التعبير المنطقية؛ أي قبل مرحلة الصياغة اللغوية النحوية»[15]، فتصور "عز الدين إسماعيل" للغموض يقف عند عدم وضوح الأفكار الذهنية السابقة لعملية الكتابة، أو الصياغة النحوية التركيبية مثل ما طرحه " أمبسون".

فإذا كان أدونيس يؤكد أن الغموض في الشعر ليس بذاته نقصا وأن الوضوح ليس بذاته كمالا، والغموض قد يكون دليل غنى وعمق، وهذا ما نبه إليه ناقد قديم فقال (أفخر الشعر ما غمض). ولو كان الغموض بذاته نقصا للشعر لسقط من شعر الإنسانية أعظم ما أنتجته، فإن الناقد عز الدين إسماعيل يقر بأن «الغموض في الشعر ليس نقيضا للبساطة، وأن الشعر البسيط الذي يهزنا هو في الوقت نفسه عميق، لأن البساطة الساذجة في الشعر لا يمكن أن تهزنا من أعماقنا، وهذه البساطة العميقة التي نصادفها لدى بعض الشعراء لا تجعلنا بحيث نرفض الشعر الغامض ،بل هي أحرى أن تعطفنا إليه ،لأن البساطة العميقة والغموض كلاهما شديد المساس بجوهر الشعر الأصيل»[16].

كما أن " عز الدين إسماعيل" أشار إلى قضية الغموض في الشعر، الذي عده ليس نقيضا للبساطة، فالشعر البسيط الذي يهز كيان القارئ عميق في الوقت نفسه، لأن البساطة الساذجة في الشعر لا يمكن أن تهز الأعماق، والبساطة العميقة لدى بعض الشعراء لا تؤدي إلى رفض الشعر الغامض، بل هي أخرى من العطف إليه، لأن البساطة العميقة والغموض كلاهما شديد المساس بجوهر الشعر الأصيل[17]، ولهذا فإن "عز الدين إسماعيل"؛ جعل من الوضوح والسهولة طابعا خاصا بالشعر القديم، أما الغموض فسمة للشعر الجديد.

أما " إبراهيم رماني" فيرى أن الغموض «حقيقة واجبة الوجود في النص الشعري، تتموضع في قلب السياق الإنشائي، الذي يكتفي بذاته، ويحقق هويته بعيدا عن مراهنات الواقع وقواعد الاستدلال المنطقي الواضح، إنه طاقة الإبداع في النص التي تفتح مداه على عوالم لا نهائية من الدلالات الإيحائية »[18]، لأن الصور الإيحائية أقوى جمالا من الصور الوصفية المباشرة، نظرا لما للإيحاء من حقيقة جمالية لا نستطيع نكرانها، فشتان بين التصريح والتلميح (الإيحاء)، والغموض لم يكتمل له هذا المصطلح إلا متأخرا، وقد كان

---

[15] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص189.
[16] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص193.
[17] ينظر، المرجع نفسه، ص193.
[18] إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 96.

يطلق عليه من قبل: الإبهام والتعمية؛ إذ أن الإبهام تعمية وإتيان الشيء المغلق ،الذي لا يدل عليه الظاهر، ولا يمكن الوصول إليه إلا بإرشاد وتوضيح يردان من خارج الأثر نفسه[19].

إذ لاشك أن الشعراء الرمزيين اجتنبوا الوضوح، واعتبروا أن في الذات الإنسانية ناحية لم تعن بالدراسة، فدرسوها وعبروا عما لا يعبر عنه، فإذا كان رامبو يرى أن الغموض «عنصر الشعر الأساسي كما أنه عنصر الموسيقى الأول»[20]، فقد تأثر الشعراء العرب بالغربيين ونسجوا على منوالهم حتى غدا الغموض ظاهرة واضحة في الشعر العربي الحديث والمعاصر تدعو للتأمل.

4-أسباب الغموض في الشعر العربي الحديث:

للغموض أسباب كثيرة، ترجع إلى إلغاء الضوابط الفنية، والتمرد عليها من بينها، غموض الفكرة ، ومعناها عدم القدرة على بلوغها من قبل الشاعر وإلباسها حللا لفظية تعبيرا عنها، وعليه فالغموض خاصة في طبيعة التفكير الشعري لا في طبيعة التعبير الشعري، وهنا تصبح القصيدة تقف على خاصة الرؤيا و الحلم مما يجعلها تتسم بالضبابية وعدم التجلي والوضوح، فما دام الأصل غير واضح فإن الوليد حتما لا يتضح أمره، إذ ليس التلاعب بالأوزان أو اللغة أو الصور هو السر الكائن وراء هذا الغموض، إنما الرؤيا المأساوية القديمة في جوهرها العميق هي التي تصوغ هذا الشعر على نحو شديد من الغموض والتعقيد [21].

فغموض الفكرة تكلم عنها النقاد العرب المعاصرون ،كون القصيدة الحديثة تعتمد على الرؤيا والحلم وجديتها وخروجها عن المألوف، عسيرة الفهم، لأن أصحابها ساروا على نهج المدرسة السوريالية والرمزية الفرنسية فاعتمدوا الرمز، واستلهموا المذهب الغامض[22] في قصائدهم.

كما نجد أن تمازج التيارات الفكرية والميل إلى التجديد يكون سببا في الغموض، والشاعر العربي المعاصر أكثر من استخدام الرمز والأسطورة ما جعل إنتاجه يصعب تأويله.

ومن تمازج التيارات الفكرية، أصبحت حضارة اليوم غاية في التعقيد والتنوع، الذين أثرا على التكوين الذهني للفرد، وكذا التأثير في الشعور والإحساس ، مما ينتج عن ذلك نصا معقدا يميل إلى الغموض، فيصبح النص مزيجا من الأفكار والتطورات وملتقى لحكم غربية

---

[19] ينظر، مسعد بن عبد العطوي، الغموض في الشعر العربي، ص169.

[20] محمد محمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص165.

[21] ينظر، المرجع نفسه، ص174-175.

[22] ينظر، مسعد بن عبد العطوي، الغموض في الشعر العربي، ص177.

أو أحداث عالمية ، التي يستطيع من خلالها النص بوابة تجنح نحو التكثيف والضبابية، تكثيف الصور الخيالية وإقحام المشاعر، وهنا تتأسس القصيدة الجديدة الغامضة التي تبتعد عن المباشرة والوضوح والتقريبية [23].

ولعلنا حينما ندرس الشعر العربي المعاصر نرى النقاد يشيرون إلى عوامل خارجية وداخلية كانت سببا في ظاهرة الغموض، وهذه العوامل استمرت في مسيرة شعراء الحداثة، حيث نجد أن البناء الجديد للقصيدة يبدو معقدا عند مقارنته بالقصيدة الكلاسيكية، فقد ظهرت أشكال بنائية متقدمة، وبدأ الشعراء يهجرون المباشرة والتقريرية، والقصيدة تتصاعد نحو بناء درامي، ثم استخدام الرمز والأسطورة والبناء بالصور الشعرية.

وخلاصة القول إن الشعر الحديث والمعاصر أو الشعر الجديد في نظر النقاد العرب المعاصرين وإن غلب عليه الغموض، فلأن الشاعر عاد يدرك بوعي كاف طبيعة عمله، وهي أن يقول الشعر أولا، وأن يخترع في سبيل ذلك كل صورة وكل لفظة تقضي بها ضرورة أنه يقول الشعر، ومعنى هذا أننا نستقبل شعرا تميزه الأصالة، إنه شعر حقيقي.

---

[23] ينظر، مسعد بن عبد العطوي، الغموض في الشعر العربي ، ص184-186.